CJSP
ISSN-2536-0027

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية

مجلة علمية محكمة تصدر
عن مركز كامبريدج للبحوث
والمؤتمرات في مملكة البحرين

العدد ـ ٣٤ ـ حزيران ـ ٢٠٢٤

CAMBRIDGE
RESEARCH AND CONFERENCES CENTER

صدر العدد بالتعاون مع
جامعة المشرق
العراق بغداد .طريق المطار الدولي

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الرابع الثلاثون – حزيران ٢٠٢٤– ذي الحجة ١٤٤٥
ISSN–2536–0027

الرؤية الاجتماعية للدين عند السيد محمد حسين فضل الله (رحمه الله)

الباحثة م.م نُور حَسَن جَبَّار
جامعة ذي قار/كلية العلوم الإسلامية / قسم علوم القرآن

الملخص

اتّسعت اهتمامات السيّد فضل الله سَعة المرجعية الإسلاميّة نفسها، كونها الفضاء الروحيّ والعقيديّ والتشريعيّ للإنسان المسلم، فكان خطاب السيّد فضل الله شاملاً وعاماً ، ولذلك تنوّعت نظراته ورؤاه، ومعها تنوّعت نظراته النقديّة، وتعدّدت مراجعاته وتأمّلاته أيضاً .فعكف على ملاحقة المظاهر التي وجدها تأكل من رصيد الاجتماع الإسلامي، وطارد الزوايا المظلمة في التراث الإسلامي، ودأب على انتهاج منهج جديد إلى حدٍّ ما للاستنطاق والاجتهاد. ولأنّه لم يكن حبيس صومعته فقد كانت نظراته النقدية تتوزّع على مساحات غير محدودة، بدا لخصومه أنّه بصدد هدم ما بناه الآباء والأجداد، فكان خوفهم يتصاعد مع كلّ كلمة ومع كلّ ملاحظة، متغافلين أو غافلين عن نشاطه الفاعل والمتزايد يوماً بعد يوم، وهو الذي يفرض عليه هذا الحضور، بما له من تأثير قوي في الاجتماع الإنسانيّ الإسلامي.

و ثمّة عددٌ هائل من الملاحظات التي تركها السيّد فضل الله، ممّا يندرج تحت عنوان النقد والمراجعة، ويدلّل على نزعة نقدية غير مسبوقة في الوسط العلمي في الدائرة الإسلاميّة الشيعية، وربّما الدائرة الإسلامية السنيّة أيضاً.

ووضعها في سياقاتها المقصودة للسيّد فضل الله نفسه، كونها اشتغالات تستند إلى رؤية وتتكئ على فلسفة للحياة والكون والإنسان، تستظلّ وتسترشد بالمرجعيّة الإسلاميّة، وتستلهم المبادئ والتعاليم من منظومتها القيميّة ، ووضعها في السياقات المقصودة، بغية تكريسها في الحياة، وبهدف وضعها عناوين في طريق النهضة، التي كان السيّد فضل الله يتطلّع إليها ويصرف المهمّ من عمره في سبيلها، شأنه شأن مَنْ سبقه من المصلحين وأعلام التجديد.

The interests

of Mr. Fadlallah expanded the scope of the Islamic reference itself, being the spiritual, doctrinal, and legislative space for the Muslim human being, so Mr. Fadlallah's discourse was comprehensive and general to this aspect, and therefore his views and visions varied, and with it his critical views varied, and his reviews and reflections also multiplied. So he devoted himself to pursuing the manifestations that he found eroding from the balance of the Islamic society, and he pursued the dark corners in the Islamic heritage, and he persevered in adopting a somewhat new approach to questioning and ijtihad. . And because he was not confined to his cell, his critical looks were distributed over unlimited areas, and it seemed to his opponents that he was about to demolish what the fathers and grandfathers had built, so their fear was escalating with every word and every note, ignoring or unaware of his active and increasing activity day after day, and

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الرابع الثلاثون – حزيران ٢٠٢٤– ذي الحجة ١٤٤٥
ISSN–2536–0027

he is the one who imposes on him This presence, with its strong influence in the Islamic human society. And there are a huge number of notes left by Mr. Fadlallah, which fall under the title of criticism and review, and indicate an unprecedented critical tendency in the scientific community in the Shiite Islamic circle, and perhaps the Sunni Islamic circle as well . And placing them in their intended contexts for Mr. Fadlallah himself, as preoccupations based on a vision and relying on a philosophy of life, the universe, and man, shaded and guided by the Islamic reference, and inspired by principles and teachings from its value system, and placed them in the intended contexts, in order to perpetuate them in life, and with the aim of setting them as headings in the path of renaissance, Which Mr. Fadlallah was looking forward to and diverting the important and His life is on its way, like those who preceded him among the reformers flags of renewal.

المُقدِمَةُ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين وأفضل الصلاة وأتمّ التسليم على نبينا محمد وعلى آله أجمعين. وبعد: يمثّل التفكير النقديّ في كتابات السيد فضل الله ظاهرةً عميقة الجذور، تستند إلى رحابة في التفكير، ورجاحة في العقل، واستقلال بالرأي، فضلاً عن همٍّ إسلامي شكّل زخماً هائلاً باتّجاه إصلاح المجتمع وأحواله، فعبَّر عنه باتجاهٍ نقديّ عام وشامل من جهة، وقويّ وواضح وصريح من جهةٍ أخرى. ونعني بالاتّجاه النقدي، ذلك التوجّه الذي يتناول فيه ومن خلاله المفكّر والباحث والناقد مجموعة قضايا تشكّل إطاراً نظريّاً لنقد النظام القائم أو الكشف عن تناقضاته، سواء كان هذا النظام اجتماعياً أم غير اجتماعي، بحثاً عن نظام أفضل وأقوَم، تنتفي فيه هذه التناقضات وتختفي فيه المفارقات. ولغرض النجاح في مهمةٍ من هذا القبيل، يفترض أنْ يمتلك التوجّه النقدي تصوّراً مثالياً لما ينبغي ويكون، ويصبح الإطار المرجعيّ لتفنيد ما هو قائم والعمل على إلغائه وإقصائه من حياة الناس، بوصفه معيقاً لحركتهم. وتبدأ مهمّة التغيير هذه، وهي تستهدف بناءً اجتماعياً يبدو متناقضاً وعاجزاً عن إشباع الحاجات الأساسية للإنسان والوفاء بمتطلّباته، وبالنقد الثقافيّ، بما هو عمل تنويريّ، يهدف إلى تشكيل توجّهات ثقافيّة وقيميّة جديدة، تحكم هذا التفاعل الكائن في الواقع الاجتماعي والحضاري، وهو بالتالي يستهدف إيجاد ثقافة جديدة تقود التفاعل في الاجتماع الإنساني. وبناء عليه تجدر الإشارة إليه من خلال هذه الدراسة:

مشكلة البحث: السيّد فضل الله بما هو فقيه وعالِم ومفكّر إسلامي ملتزم يصدر دائماً عن الموقع الإسلامي، على قدر إيمانه بهذا الموقع، وشدّة تمسّكه به، واعتقاده الكبير بمصداقيته، فهو فقيه ومفكّر إسلامي، اندمجت في عقله وروحه رؤى الإسلام ومبادؤه، إلى درجة أنّه لا يفكّر معها إلاّ إسلامياً، وبقدر ما تمليه عليه عقيدته الإسلامية. وفي موضوع بحثنا تحديداً يعتقد السيّد فضل الله بدورٍ كبير للإسلام، في التخطيط للتفكير النقدي، سواءً على مستوى التنبيه على خطورته وضرورته، أم على مستوى رسم المسار والمنهج الصحيحين لتفعيله في الحياة الإنسانية، بما هو حاجة ملحَّة تقتضيها طبيعة الحياة الإنسانية على المستوى الفكري والاجتماعي والديني والسياسي .

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الرابع الثلاثون – حزيران ٢٠٢٤– ذي الحجة ١٤٤٥
ISSN-2536-0027

أهداف الدراسة: تتلخص الأهداف العامة لهذه الدراسة: وبما يتّصل بموضوعنا الرئيس وهو الرؤية النقدية والاجتماعية للدين عند السيّد فضل الله فإنّنا أمام عمل ثقافيّ تنويريّ بامتياز، يعمل على خلق ثقافة ذات مضمون نهضويّ، ترتقي بالإنسان والمجتمع، وتنتشله كما يدعو من عالمٍ هابط إلى عالمٍ رفيع، على المستوى الدينيّ والثقافيّ والاجتماعيّ، فوظّف قواه ونشاطه لهذا الغرض، ولتحقيق هذا الهدف.

منهج الدراسة: ستسلك هذه الدراسة ما يتناسب معها من المناهج العلمية ومنها :المنهج الوصفي :وذلك بدراسة حقائق وسمات الرؤية الاجتماعية للدين عند السيد فضل الله، ومنها المنهج التحليلي : وذلك بالنظر فيما ذهب إليه في المسائل المتعلقة بد راستنا ، وذلك بتحليل بعض نواحيها، ومنها المنهج الإستقرائي وذلك باستقراء آرائه .

خطة الدراسة: قسّمت الدراسة إلى مقدمة، وأربعة مباحث، وكل مبحث تم تقسيمه بحسب ما تقتضيه الحاجة، وأخيرًا الخاتمة، ، والمصادر والمراجع وذلك على النحو التالي:

المبحث الأول : مفهوم الرؤية الاجتماعية للدين عند السيد محمد حسين فضل الله

المبحث الثاني : مصادر الهام التفكير في الواقع الديني عند السيد محمد حسين فضل الله

المبحث الثالث : أهم الأسس والمرتكزات التي انطلق منها السيد فضل الله في رؤيته الاجتماعية للدين

المبحث الرابع : ملاحظات السيد فضل الله النقدية التي انبثقت من خلالها رؤيته الاجتماعية للدين.

المبحث الأول : مفهوم الرؤية الاجتماعية للدين عند السيد محمد حسين فضل الله

لقد اتّسعت اهتمامات السيّد فضل الله سَعة المرجعية الإسلاميّة نفسها، كونها الفضاء الروحيّ والعقيديّ والتشريعيّ للإنسان المسلم، فكان خطاب السيّد فضل الله شاملاً وعاماً يشمل جميع المجالات منها الجانب الاجتماعي والديني ، ولذلك تنوّعت نظراته ورؤاه، ومعها تنوّعت نظراته النقديّة، وتعدّدت مراجعاته وتأمّلاته أيضاً .فعكف على ملاحقة المظاهر التي وجدها تأكل من رصيد الاجتماع الإسلامي، وطارد الزوايا المظلمة في التراث الإسلامي، ودأب على انتهاج منهج جديد إلى حدٍّ ما للاستنطاق والاجتهاد .

فقد كانت نظراته النقدية تتوزّع على مساحات غير محدودة، بدا لخصومه أنّه بصدد هدم ما بناه الآباء والأجداد، فكان خوفهم يتصاعد مع كلّ كلمة ومع كلّ ملاحظة، متغافلين أو غافلين عن نشاطه الفاعل والمتزايد يوماً بعد يوم، وهو الذي يفرض عليه هذا الحضور، بما له من تأثير قوي في الاجتماع الإنسانيّ الإسلامي. ثمّة عددٌ هائل من الملاحظات التي تركها السيّد فضل الله، ممّا يندرج تحت عنوان النقد والمراجعة، ويدلّل على نزعة نقدية غير مسبوقة في الوسط العلمي في الدائرة الإسلاميّة الشيعية، وربّما الدائرة الإسلامية السنيّة أيضاً. وقد لا يكون مفيداً حصر هذه الملاحظات النقدية أو جمعها في هذا البحث، كونها مبثوثة في كتب ومؤلفات السيّد فضل الله، غير أنَّ الأهم هووضع هذه الاشتغالات، في سياقاتها المقصودة للسيّد فضل الله نفسه، كونها تستند إلى رؤية وتتكئ على فلسفة للحياة والكون والإنسان، تستظلّ وتسترشد بالمرجعيّة الإسلاميّة، وتستلهم المبادئ والتعاليم من منظومتها القيميّة ووضعها في السياقات المقصودة، بغية تكريسها في الحياة،

وبهدف وضعها عناوين في طريق النهضة، التي كان السيّد فضل الله يتطلّع إليها ويصرف المهمّ من عمره في سبيلها، شأنه شأن مَنْ سبقه من المصلحين وأعلام التجديد [1] .

وفي ضوء ما تقدّم فإن مفهوم الرؤية الاجتماعية للدين عند السيد محمد حسين فضل الله هي : مجموع و الرؤى والأفكار للسيد محمد حسين فضل الله ، حول القضايا والظواهر اجتماعية لها صلة بالدين، كبعض طرائق الإحياء والشعائر والمناسبات و أنَّ موقف اللامبالاة تجاهها يسهم في تجذيرها ويسمح لها بالقرار.

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الرابع الثلاثون – حزيران ٢٠٢٤– ذي الحجة ١٤٤٥
ISSN-2536-0027

ومعالجة هذه القضايا في ضوء منهج جديد مستند إلى القرآن الكريم والسنة الشريفة واخراج كل ما هو معيق وغير منتج في المجتمع الاسلامي [٢] .

المبحث الثاني : مصادر الهام التفكير في الواقع الديني عند السيد محمد حسين فضل الله

لقد استحوذ التفكير النقدي على مجمل النشاط الفكري والثقافي للسيّد فضل الله، وطبع نتاجه كلّه، فشكّل بذلك مدرسة فكرية رائدة وقويّة، ستترك بصماتِها واضحةً في المسار العلمي الإنساني عموماً، ولدى الإسلاميّين على وجه الخصوص.

و يمكن تحديد مصادر إلهام تفكير و التي يأتي في طليعتها :

أولًا : الإسلام : يعتبر الإسلام الرسالة الحية التي تعيش في نفوس كل المسلمين وترسم لهم نهج حياتهم في مختلف جوانبها، ورسالة حيَّة لا تزال تعيش في تفكير ونفوس المسلمين، وتحدِّد إطار تفكيرهم ومساره، وتفعيله في الحياة الإنسانية، بما هو حاجة ملحَّة تقتضيها طبيعة الحياة الإنسانية على المستوى الفكري والاجتماعي والسياسي وانطلاقاً من إيمانه العميق بقيمومة الإسلام على الحياة الإنسانية بجميع جوانبها، سعى السيد فضل الله إلى اكتشاف الرؤية الاسلامية في النقد، والأسلوب الإسلامي لتفعيل هذه الظاهرة في المجتمع الاسلامي وعقلنتها والتشريع لها ، لأن ظاهرة من هذا القبيل لا يريد لها الإسلام - كما هي الظواهر الاجتماعية الأخرى أنْ تنطلق وتشيع في الحياة الإنسانية دونما ضوابط ودونما حدود ، لأنّها قد تصادر حينئذٍ كلّ النتائج الإيجابية التي يمكن أنْ تتمخّض عنها، وتنقلب إلى ظاهرة سلبية، تلغّم حياة الناس بانعدام الثقة، وتزعزع الأجواء الإنسانية .

إنّ الإسلام في رصيده الفكريّ والتشريعيّ والعاطفيّ كلّه يعتبر من أهمّ مصادر إلهام التفكير النقدي للسيّد فضل الله ، وسيفرض هذا المصدرعلى الدوام قيمومته على تفكيره ومنهجه النقدي، ويضفي على تجربته النقدية، مسحة من الجمال والاتّزان والهدوء والعقلانية. وفضلاً عن ذلك، فإنّه سيحدّد له آليات فعله النقدي، ويشيع روحه بأهداف الرسالة الكبيرة، سيصدر عن فكرٍ نقديٍّ هادف، يتعالى على أساليب اللّغو ومضامين الباطل[٣] .

ويتابع السيّد فضل الله لتأصيل الفكرة بالنصوص القرآنية والأحاديث الشريفة . ويؤكد على أنّ النص القرآني مشبع بفكرة النقد والمراجعة ، منها قوله تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴾[٤] ، ففي هذه الآيات نجد صورة الإنسان الذي يستخدم فصاحته وبلاغته في إغراء الناس بالوعود المعسولة والأحلام الجميلة مستعيناً بالأيْمان المغلّظة شاهداً على ما في قلبه، بكلّ حرارة واندفاع، حتّى إذا وصل إلى غايته وحصل على هدفه، تكشّفتْ نفسه عن دخائلها الخبيثة ، والأسلوب الذي يتمثّل في الآيات

الكريمة المتقدّمة فهي في إعطاء الشواهد الحيّة من الحياة على خطأ الأسس النقدية التي ينطلق معها الناس في تقييم الآخرين، فيسيئون من خلال ذلك إلى أنفسهم وإلى الحياة [٥] .

وهو ما يرد عن النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم ، في عددٍ من الأحاديث الشريفة، ومنها: ((حاسِبوا أنفسكم قبل أنْ تُحاسَبوا وَزِنوها قبل أنْ توزَنوا))[٦] ، وإذا كانت هذه الأحاديث الشريفة تتّصل بالجانب الديني، وبالتحديد في العلاقة مع الله، فإنّها من وجهة نظر السيّد فضل الله لا تنفصل عن الجانب الدنيوي والحياة العامة[٧] .

ثانياً : هموم العمل الإسلامي، فكان من المهتمّين فوق العادة بكلّ حركة الإسلاميين ومراقباً للحياة العامة للمسلمين أفراداً وجماعات، ومحاولة الوصول إلى التطابق بين هذا الحراك اليومي وبين المفاهيم والتعاليم

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الرابع الثلاثون – حزيران ٢٠٢٤– ذي الحجة ١٤٤٥
ISSN-2536-0027

الإسلامية، وردم الهوّة الكبيرة بين هذين العالمين ومن هذا تبدو ضرورة عملية النقد وتفعيلها في حياة المسلمين، فيما يتّصل بالعقيدة والتشريع والسلوك، وبما يحفظ للمسلمين دينهم وموقعهم.

كتب السيّد فضل الله يؤكّد ذلك:

((..إنّ كلّ ما نريده في هذا الحديث هو توجيه التفكير الإسلاميّ للحركة الإسلاميّة إلى نقد الواقع العمليّ للحركة الإسلاميّة في كلّ أسلوب وفي كلّ فكر، وفي كلّ عمل، بعيداً عن طبيعة الغوغائيّة التي ترفض مناقشة المألوف والمعروف لديها، بحجّة أنّه مناقشة للمقدّسات الدينية، لارتباط هذه الأمور لديهم بالحقيقة الدينية.. فإنّنا نعتقد أنّ المقدّسات الدينية هي الحقائق الدينية الأصيلة التي تثبت أمام النقد ولا تخضع في طبيعتها لأيّ اعتبار آخر غير الحجّة والدليل ..وبذلك نستطيع أنْ نحفظ الدين من كلّ ما يعلق به في مسيرته الطويلة من شوائب وزوائد دخيلة فيه، ونخلّصه من الوقوع تحت رحمة العوام والجهّال الذين يفرضون على الدين فهمهم))[٨] .

ثالثًا: التجربة الحياتية: ربّما تكون التجربة التي عاشها السيّد فضل الله من أهم المصادر التي رفدت الحسَّ النقدي لديه، وشكّلت ينبوعاً متدفقاً لا ينضب في حياته اليوميّة، فهو عالِم عامِل، خَبرَ الحياة من خلال تواصله المستمرّ بالمحيط الاجتماعي الذي حوله، على اختلاف توجّهاته وتنوّع ثقافاته وتعدّد انتماءاته، فأكسبه هذا التواصل القدرة على تشخيص ما هو مفيد وما هو غير مفيد، وما هو خطير وما ليس كذلك، وأعطته هذه الخبرةُ القدرة على استشراف المستقبل، من خلال تفحّص الظواهر والمناحي التي تضجّ بها الحياة اليومية.وفوق ذلك، فإنَّ السيّد فضل الله فقيه ومفكّر وأديب وسياسي ..وكلّ ذلك يُسهم في تدعيم هذه الرؤية النقديّة، بما لديه من إحساس بضرورة المراجعة، وأهميّة التأمّل المستمرّ في ما خَطاه الإنسان وما سيخطوه من خطوات، وعلى المستوى العقائديّ والاجتماعيّ . ولذلك طال النقد عند السيّد فضل الله جوانب عديدة، سواء كان ذلك علميّاً معرفياً(نظرياً)ذلك اجتماعياً سياسياً يتّصل بالحياة العملية. لقد كان السيّد فضل الله يردّد الدوام، أنّ(كتاب الحياة)كما هو تعبيره أكبر معلّم للإنسان، وأنَّ مَنْ يقرأ فيه سيكون على دراية شديدة بالحياة[٩] .

المبحث الثالث: أهم الأسس والمرتكزات التي انطلق منها السيد فضل الله في رؤيته الاجتماعية للدين

أولًا : إنَّ أهم الأسس والمرتكزات التي تنطلق في ضوئها رؤية عند السيّد فضل الله وترتبط بها هي عملية التغيير ويعتقد أنّ عملية النقد مقدّمة ضرورية للتغيير، ومرتكزاً أساسياً يتّكئ عليه المشروع التغييري إذا يوفر قراءة شاملة للأوضاع التي تمرّ بها المجتمعات سواء كانت دينيه أو سياسية أو اقتصادية ، والتي تنوي النهوض وتنشدُ التقدّم والازدهار فالنقد الموضوعي البنّاء يبني الحقّ إخلاصاً للحقّ، ويهدم الباطل، ليكون ضدّ الباطل [١٠] .

ثانيًا : كما ترتبط عملية النقد ببُعدٍ اجتماعي غاية في الأهمية، ويستند إلى العنصر الغائي لخلق الإنسان ووجوده في هذه الحياة، وهو الذي يتّصل بالوظيفة التي كلّف بها الإنسان، في إعمار هذه الأرض واستثمار الطاقات والإمكانات الخلاقة في هذا العالم السّاحر والمذهل. وأحسب أنّ وظيفة ومهمة خطيرة من هذا القبيل لا يمكن أنْ يُكتب لها النجاح أو تُكلّل به في غياب النشاط النقدي، وستكون عرجاء كما هي الحال في البلدان النامية وفقاً للتصنيف العالمي، لا تقوى على تجاوز أزماتها المتعدّدة والمتنوّعة [١١].

يقول السيد فضل الله في هذا الصدد :

((إنَّ عملية النقد الذاتي في هذه الحالة تمثّل جَرَس الإنذار إزاء هذا الواقع قبل أن يستفحل ويستعصي على المعالجة، لأنّه يكشف الأزمة قبل أنْ تتعقّد، ويُرجع القافلة إلى الطريق قبل أنْ تبتعد كثيراً في صحارى التيه))[١٢].

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الرابع الثلاثون – حزيران ٢٠٢٤– ذي الحجة ١٤٤٥
ISSN-2536-0027

ثالثاً :وتتّصل عملية النقد بمبدأ أخلاقي، ومع غيابه يتحوّل هذا اللّون من النشاط إلى عمل عدواني بغيض، تأباه النفوس وتعافه، وهو ما يجعل من النقد عملية إنسانية تستهدف البناء والتقويم لا التجريح والتخريب . ولذلك ينظر السيّد فضل الله إلى النشاط النقدي كونه : ((عملية تقييم للمواقف وتصحيح للسلوك، من أجل وضع كلّ شيء في موضعه، وإعطاء كلّ عمل قيمته، وتمييز الخطأ من الصواب والصحيح من الفاسد .. انطلاقاً من الرغبة في البناء والتركيز واستقامة الخطأ في طريق الحقّ..))[١٣] .

المبحث الرابع : ملاحظات السيد فضل الله النقدية التي انبثقت من خلالها رؤيته الاجتماعية للدين

لقد اتّسعت اهتمامات السيّد فضل الله سَعة المرجعية الإسلاميّة نفسها، كونها الفضاء الروحيّ والعقيديّ والتشريعيّ للإنسان المسلم، فكان خطاب السيّد فضل الله شاملاً وعاماً ، و ثمّة عددٌ هائل من الملاحظات التي تركها السيّد فضل الله، ممّا يندرج تحت عنوان النقد والمراجعة، سجّلها السيّد فضل الله على الواقع الديني، وجد فيها افتراءً على الدّين نفسه، وتعدّياً على منهجه أو مصادرة لأهدافه وغاياته:

الدين والتديّن

في مسألة الدين والتديّن، ثمّة حضور نقدي لافت للسيّد فضل الله، لأنّ موضوع نقده ممّا يمسّ جوهر المشروع الفكري والعقيدي الذي ينتمي إليه السيّد فضل الله ويعتقد أنّه الأساس الذي تؤمن به الجماعة الإسلاميّة، والذي يشكّل العنصر الأهم في هويّتها[١٤].

وفي هذا الصدد نضع أيدينا على عدّة ملاحظات نقديّة سجّلها السيّد فضل الله على الواقع الديني، وجد فيها افتئاتاً على الدّين نفسه، وتعدّياً على منهجه أو مصادرة لأهدافه وغاياته:

١ - لا يُخفي السيّد فضل الله أسفه للحال التي يعيشها المسلمون ويحياها الكثيرون، وهي حال الافتراق بين رسالة تعجّ بالقيم والمُثُل والمبادئ، وتضجّ بمنابع عديدة للقوّة والتجدّد، وبين سلوك يشيع بين المسلمين لا يجمعه جامع مع هذه المنظومة، إلى درجة يبدون أكبر الخاسرين، فلا هم ينتسبون إلى هذه الرسالة، ولا هم يأخذون بمنظومةٍ قيميّة أخرى تمكّنهم من تجاوز الحال التي هم عليها. يقول السيّد فضل الله:

((إنَّ دراستنا للإسلام في مفاهيمه، وفي تخطيطه للمجتمع الإنساني يجعلنا نفكّر بأنّه يملك طاقات حيّة يمكن لها أنْ تحقّق نظاماً حضارياً جديداً .ونحن نعتقد أنّ الإسلام في القرن الأوّل من حركته، استطاع أنْ يحوّل المجتمع الجاهل إلى مجتمع متحضّر، بقطع النظرعن السلبيّات التي نرصدها في بعض ممارسات الحكم والحكّام.. ولكنّ المسألة هي أنّ الإسلام أو أيّ نظام حضاري آخر، لا بدّ له من أرضيّة صالحة يتحرّك فيها، ولا بدّ له من إنسانٍ يؤمن به ويتمثّله في تفكيره، لأنّ الدّين لا يستطيع أنْ يحمي نفسه من المتديّنين، والفكرة لا تستطيع أنْ تحمي نفسها من مفكّريها .ولهذا قيل :إنّ الإسلام شيء والمسلمون شيء آخر))[١٥] .

٢- وفي كشفٍ تفصيلي لواقع المسلمين يتفحّص السيّد فضل الله شخصية المسلم، من حيث انسجامها مع المحتوى الفكريّ والعقيديّ للإسلام، ليعلن على مضض أنّها شخصيّة تعاني الانشطار وتستسلم له.

يقول السيّد فضل الله: ((فالإنسان المسلم في أكثر مجتمعاتنا إنسان مهزوز الشخصية تتنازعه شخصيات كثيرة طارئة فتسيطر عليه في مجاله الفكري والعملي .أمّا شخصيّته الأصيلة كمسلم فلا تعيش في واقع حياته العام، وإنّما تقبع في زواياها في خمول واسترخاء، وربّما تستيقظ وتنتبه في حركة عاطفيّة سريعة، إذا تهيّأ لها الجوّ الملائم لذلك، ثمّ لا تلبث أنْ تهدأ، تماماً كالرواسب الراكدة في قعر الحوض عندما يضطرب))[١٦] .

٣- وتتكشّف ملاحظات السيّد فضل الله النقدية فتطال السلوك الديني، وأعني به سلوك المنتسبين إلى الدّين، والذين يحملون عنوانه ويتشرّفون بالانتماء إليه، فيقول السيّد فضل الله: ((مشكلتنا الدينيّة في هذا العصر هي أنّنا متديّنون لا نفهم الدين، وإنّما نحاول ممارسة بعض شكليّاته بنحوٍ آليٍّ من دون أنْ تترك في حياتنا أي

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الرابع الثلاثون – حزيران ٢٠٢٤– ذي الحجة ١٤٤٥
ISSN-2536-0027

أثر .ونحن متديّنون ولكنّنا نسير وراء الظالمين الذين يستغلّون خيراتنا ويمتصّون دماءنا ويخرّبون أمننا وسلامتنا، بما يثيرونه في حياتنا من فُرقةٍ وخلاف ..فنحن متديّنون ولكنّنا نتّبع كلّ خطط الكفر وخطواته التي تَتَلَوّن وتَتَنَوّع حسب اختلاف الظروف ..ونحن متديّنون ..ولكنّنا نحمل في قلوبنا الحقد والضغينة والشحناء لإخواننا في الإيمان ..ونحن متديّنون ..ولكنّنا لا نراقب الله في كلّ صغيرةٍ أو كبيرة، وإنّما نسير ونعمل بوحي من شهواتنا ورغباتنا، ونتصرّف ونجرم من دون أيّ رادع أو وازع، كأنّ ليس هناك ربٌّ يراقبنا وإله يشاهدنا .ونحن متديّنون ولكنّنا نمارس الغيبة والنميمة والكذب والفحشاء والزّنا وشرب الخمر والغشّ والخداع ..وكلّ أساليب الشرّ والانحراف .وبعد ذلك ماذا بقي لنا من الدين؟ وماذا عندنا من الإيمان؟ إنّ الدّين ليس مجرّد فكرة معلّقة في الهواء، أو صفة عائليّة تلصق بالإنسان، كما يلصق به نسبه .إنّ الدنيا عقيدة تخطّط وتوجّه، وفكر يُنير ويهدي، وسلوك يُثار وينفعل ويستجيب لنداء الله. مأساة الدّين في هذا العصر أنّه أصبح مجالاً للاستغلال والاتّجار من قِبَل تجار السياسة، فقد تحوّلت الشعارات الدينيّة التي تمثّل كلّ ما في الحياة من قِيَم خيّرة، لقد تحوّلت بفعل الألاعيب السياسية إلى لافتات تحاول استغلال عاطفة الجماهير وسذاجة معرفتها الدينيّة، وبدأ الكثيرون من تجّار السياسة يتستّرون وراءه لإخفاء أهدافهم ومصالحهم وأطماعهم الشخصية التي يختبئ في داخلها الكفر والاستغلال من الشرق والغرب))[١٧] .

٤- وتتعمّق شكوى السيّد فضل الله تجاه ظواهر عديدة في هذا المجال، ولعلّ في مقدّمها ظاهرة التماهي بين الدين والقناعات الشخصيّة والعادات التي أَلِفها بعض الناس، إلى درجة أصبحت معها هذه الظواهر جزءاً من الدين[١٨] . يقول السيّد فضل الله في هذا الصدد: ((وربّما تتمثّل الحاجة إلى النقد الذاتيّ في دراسة بعض الأوضاع التي درجنا على ممارستها في شؤون الدِّين والدنيا، انطلاقاً من عادات قديمة، أو تقاليد مُسْتَحكمة، أو نظرة خاطئة تجد في هذه الأوضاع الشادّة ضماناً لقيم معيّنة، أو مبادئ كبيرة، وترى أنّ زوال هذه الأوضاع يشكّل خطراً على تلك القِيَم والمبادئ، كما نراه في الكثيرين الذين يصرّون على إبقاء المظاهر المتخلّفة لبعض الممارسات التي اصطبغت بصبغة دينيّة أو اجتماعيّة، بحجّة أنّها هي التي تحفظ للمجتمع عقيدته أو توازنه أو ارتباطه بالقيم، فإذا فقدناها فقدنا هذه الضوابط التي يحتاجها المجتمع في حياته الدينيّة والاجتماعيّة))[١٩] .

والسيّد فضل الله إذ يسجّل هذه الملاحظة، فإنّه يدرك تماماً خطورة ظاهرة التماهي بين التقاليد والقناعة وبين الدين، وذلك لجهة ما يرتكبه البعض من محاولات الإسقاط على الدين، إلى درجة يصبح الدين معها ملحقاً ثقافيّاً، يستمدّ الدين قيمته من قناعات وعادات الناس، بدلاً من أنْ يكون الدين مصدراً عُلويّاً يستقلّ عن التأثير البشريّ فيه كما هو المفروض، ليبقى على نقائه وصفائه. ويتّصل بهذه الظاهرة، ما اعتاده البعض من وسائل التعبير وإحياء ما يُعرَف بالشعائر والمناسبات الدينية، ومدى تطابق وانسجام هذه الوسائل مع المحتوى الدينيّ والمضمون العقيديّ[٢٠] .

والسيّد فضل الله شديد الحرص على انسجام هذه الوسائل مع المحتوى الدينيّ، وأنْ لا تكون بعيدة عنه، كما هي الحال في عدد غير قليل من طرائق إحياء الذكريات والمناسبات والشعائر، حيث تبدو عبئاً على الدين أكثر من أنْ تسهم في خلق مناخ ديني سليم ونافع.

يقول السيّد فضل الله وهو يتحدّث عن التعاطي السطحيّ والعقيم مع هذه الذكريات والمناسبات: ((فمن الملاحظ أنّ مثل هذه الذكريات والمناسبات لم تعد تشير إلى المعاني العميقة التي تتمثّل في وقائعها التاريخيّة أو في الذوات الطيّبة الذين يتمثّلون فيها، نظراً إلى أنّها تجمّدت وتحجّرت بفعل مرور الزمن، حتّى أصبحت مجرّد تقليد أجوف من تقاليدنا التي نسير عليها كما نسير على أيّ تقليد من التقاليد الأخرى التي لا تتّصل بالدين من قريب ومن بعيد .ولذا، فلم يعد من المهم لدينا فيها أن تعطي أيّ معنى من المعاني التي كانت سبباً

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الرابع الثلاثون – حزيران ٢٠٢٤– ذي الحجة ١٤٤٥
ISSN-2536-0027

في انطلاقة هذه الذكرى وخلودها، وإنّما المهم أنْ تبقى ولن تنجح في مظهرها الخارجي، فإذا كانت المناسبة ذكرى مولد لبعض أبطال التاريخ الإسلامي، كان المهم فيها وفي نجاحها، أن تبرز المناطق التي تقام فيها هذه الذكرى في حلّة رائعة من الزينة، أمّا المجالات الفكريّة والروحيّة والعمليّة لهذا البطل المسلم فلا تتّصل بنجاح المناسبة وإخفاقها في قليل أو كثيرمن الناحية الأساسيّة، ولكنّها إنْ وجدت قد تسبغ على المظهر الخارجي لوناً فكريّاً أو روحيّاً، كلونٍ من ألوان تغيير الجوّ ليس إلاّ، أمّا إذا كانت المناسبة ذكرى مأساة من مآسي هذا التاريخ فالمهمُّ لدينا لكي تكون ناجحة، هو العمل على إبراز عناصر المأساة بكلّ لباقة وبراعة وبأيّ سبيل من السبل التي تؤدّي إلى ذلك .فليس المهم هو نوعية هذا السبيل من الناحية الشرعية، فإذا توفّر لدينا مثل هذا الجوّ وتمّت عناصر المأساة واستدرت الدموع، فقد انتهت المهمّة، ما دام الأسى والألم والبكاء بمجرّده غاية بذاته، لا وسيلة لتمثّل المدى الذي انطلقت منه التضحية في سبيل الدين، وللتعبئة الروحية والنفسية ضدّ الظّلم والظالمين والمبدعين والهدّامين الذين يحاولون هدم الإسلام مهما كلّفهم الأمر))[٢١].

ويتوقّف السيّد فضل الله عند مفهوم الإحياء هذا، خصوصاً وقد كثر كما يقول تداول المأثور عن أهل البيت عليهم السلام ((رحم الله مَنْ أحيا أمرنا)) [٢٢]، فيقول: ((والكثير من الناس يستشهدون بهذه الكلمة في التعبير عن الولاء بالأساليب القلقة، ويتصوّرون أنّ ذلك هو حقيقة إحياء الأمر، ولكن الإمام يفسِّر إحياء أمر أهل البيت بشكل آخر، يكمل الراوي روايته، فيقول :فقلت له :وكيف يحيي أمركم؟ قال(عليه السلام) : يتعلّم علومنا ويعلّمها الناس، فإنّ الناس لو علموا محاسِن كلامنا لاتّبعونا« ، فأمر أهل البيت(عليهم السلام) هو الإسلام والقرآن، وهو السنّة، وأن نقدِّم أهل البيت (عليهم السلام) إلى كل جيل من الأجيال من خلال المفاهيم التي أصّلوها، والعقائد التي أوضحوها،

والأخلاق التي نهجوها، والعلوم التي نشروها، وأنْ نثقّف الناس بثقافة أهل البيت المتعدّدة الغنية، وهذا هو الذي يُحيي أمرهم))[٢٣] .

ولكنَّ السيّد يتساءل عن موقع القرآن الكريم في حياة المسلمين اليوم، ودوره في انبعاث المسلمين، كما بعث في حياة المسلمين الأوائل القِيَم الخ قالة. يقول السيّد فضل الله في هذا الصدد: ((فقد كان القرآن الكريم عند المسلمين الأقدمين يثير فيهم الحركة والحياة والتطلّع إلى المستقبل الذي يحتضن عزّة الإسلام وشرفه ومكانته في العالم، ليبعث النور والهداية في أرجاء المعمورة .أمّا نحن فقد تجمّدت نفوسنا حتّى لم تعد تلمح فينا إلاّ الانكماش والتضاؤل والخوف والقلق والانهزاميّة وغير ذلك من أسباب الفشل وبوادره .ومردّ ذلك في ما نفهمه إلى أنّهم كانوا يحيون القرآن في ما يوحي وفي ما يوجّه، فكرة وإيماناً وارتفاعاً بالنفس الإنسانيّة إلى أبعد مجال .أمّا نحن فنعيش القرآن ألفاظاً وتعاويذ وغير ذلك، من دون أن نلتفت إلى أغراضه وأهدافه، ومن هنا فَقَدَ القرآن عند الكثيرين منّا احترامه اللائق به عملياً وإنْ كنّا نعظّمه عندما يفسح لنا مجال الكلام))[٢٤] .

ثانيًا : الطقوسية

الطقوس جزء أساسي من الدين أي دين بما هي سلوك عبادي وروحاني، ولكنّها قد تصادر الدين أحياناً ووفقاً لتصرّفات بعض المنتسبين إليه، وتحوّل هذا الدين إلى استعراضات مجرّدة عن المحتوى، وهو ما لاحظه السيّد فضل الله على بعض الاتجاهات في الأوساط الدينيّة، فأخذ يسجّل ملاحظاته النقديّة على النزعة النقديّة عند السيّد محمد حسين فضل الله سلوكها هذا المَسْلك الخطير من وجهة نظره.

١- لا يُخفي السيّد فضل الله تذمّره من تعاظم السلوك الطقوسيّ لدى المتديّنين على حساب الدين بمفهومه الشامل، على نحو أصبح السلوك الطقوسيّ قيمة عليا لا تعلو عليها قيمة، وبات الدين في اختزالٍ شديد، كما لو أنّه لا يتعدّى هذه الطقوس ولا يتجاوزها إلى عمق الدين وجوهره.

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الرابع الثلاثون – حزيران ٢٠٢٤– ذي الحجة ١٤٤٥
ISSN-2536-0027

كتب السيّد فضل الله يقول:((إنّ طريق الوصول إلى الله لا ينحصر بالجوانب العبادية كقاعدة كبرى للتقييم الإسلامي، بل ربّما نجد الكثير منها ممّا يدخل في إطار الدعوة والمجتمع، في مركز أفضل وأقوى وأقرب إلى الله))[٢٥] .

ويعتقد السيّد فضل الله أنّ هذا السلوك آخذ بالاتّساع والتغلغل في حياة المسلمين، ويعتبر أنّ المسؤولية تقع على

العلماء، من خلال سلوكهم العام، وغلبة الانصراف إلى الطقوسية في حياتهم على حساب الترجمة الشاملة للرؤية الدينيّة(الإسلامية)التي تحفل بالفاعلية، وتعمِّم الدين على مفاصل الحياة كلّها.

كتب السيّد فضل الله يقول في هذا المجال :((إنّنا نلاحظ في الاتّجاه السلوكي لأمثال هؤلاء الذين يمثّلون تلك الفكرة، أنّهم يفضّلون التفرّغ للعبادة والانقطاع إلى الصلاة والدعاء والتهجّد، أو التنقّل بين الأماكن المقدّسة للحجّ أو العمرة، وزيارة قبور الأنبياء والأئمّة والأولياء، ولكنّهم في الوقت نفسه يضيقون بمستلزمات العمل الديني التوجيهي، أو يقتصرون على الأساليب التقليديّة التي اعتادوها أو اعتادها الناس منهم، ولا يُجهدون أنفسهم البحث عن وسائل جديدة، وأساليب جديدة ، لأنّها قد تكلّفهم تعباً وعناءً وجهداً لا يريدون أنْ يثقلوا أنفسهم به))[٢٦] .

٢ - ويلاحظ السيّد فضل الله على طغيان السلوك العبادي /الطقوس أنّه يُسهم في تضليل القواعد الشعبيّة للمتديّنين، ويقزِّم الدين نفسه، في صورةٍ يبدو معها الدين عارٍ عن أيّة رُؤى اجتماعية وإصلاحية قائدة في الحياة.

كتب السيّد فضل الله في ذلك يقول :((إنّ هذا السلوك يعطي للمؤمنين الطيّبين انطباعاً خطيراً ينعكس على التصوّر الإسلامي للحياة، فيعتبرون الجانب العبادي أساساً للتقييم الديني الإسلامي للأشخاص، ولا يرون لأي عملٍ آخر في مجال الدعوة إلى الله، وفي خدمة المجتمع في حقول الاجتماع والسّياسة والاقتصاد، أيّة قيمة دينية ...بل ربّما يحاولون أنْ يصنّفوا هذه الأعمال في عداد القِيَم الدنيويّة، التي يتولّى أهل الدنيا تقييم بعضهم البعض على أساسها بعيداً عن الدّين))[٢٧] .

ويعتقد السيّد فضل الله أنّ هذا السلوك أسهم في إقصاء الإسلام عن الحياة، على خلفية تبرير فكرة أنَّ الدِّين لا يعني فيما يعني سوى الطقوس والعبادات والجوانب الروحية التي تتّصل بهذه العوالم[٢٨] .

٣-- ويرى السيّد فضل الله، أنَّ الأكثر خطورة في هذه النزعة، من حيث هي استغراق في الطقس على حساب الجوهر، هو إفشال المشروع الديني نفسه كونه النزعة النقديّة عند السيّد محمد حسين فضل الله يهدف فيما يهدف إلى تديين الحياة كلّها وترشيد السلوك الإنساني كلّه، على نحو يكون منسجماً مع القيم الدينية، دون أنْ يحصر هذه القِيَم في مجالٍ دون آخر، أو تكون حاضرة في المسجد، لتغيب في مجالات الحياة الأخرى. فأيّة قيمة لهذه العبادات التي لا تبرح المسجد، ولا تغادره إلى الحياة، وأيّة قيمة لهذه الطقوس التي لا تسهم في تهذيب طباع البشر في معترك الحياة، الاجتماعيّة منها والسياسيّة أو الاقتصاديّة ..فما هي فائدة هذه العبادات إذا كانت مجرّد أفعال فرديّة لا تتجاوز بتأثيراتها إلى المناخ العام والحياة العامّة للناس، لتضبط سلوكهم وترشد عاداتهم وفقاً للقانون الأخلاقيّ والدينيّ[٢٩] .

٤- وقد أفرزت ظاهرة تنامي الطقوسيّة نمطاً ساذجاً تُجاه الرموز الدينيّة والعلاقة بها، فاتّخذت العلاقة طابعاً عاطفيّاً مجرّداً من الانتماء الحقيقي، بما اعتبره السيّد فضل الله تَرَفاً فكريّاً في حالات، أو تفويتاً للعلاقة الجديرة بالاهتمام، بما هم عناوين للرسالة وأد ءّال عليها وإليها. يقول السيّد فضل الله وهو يرصد هذه الظاهرة :((لقد بدأنا نفهم أنّ هذه العاطفة وهذا الولاء لا ينطلقان من واقع الصفات القدسيّة التي يتّصف بها هؤلاء القادة فحسب، تماماً كما يقدّس إنسان إنساناً لصفاته النفسية، بل ينطلقان من واقع إخلاصهم لله

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الرابع الثلاثون – حزيران ٢٠٢٤– ذي الحجة ١٤٤٥
ISSN-2536-0027

وجهادهم في سبيله، واستشهادهم من أجل إعلاء كلمة في الأرض، وبهذا يكون تقديسنا لهم موجّهاً إلى العقيدة التي جاهدوا في سبيلها وعاشوا وماتوا من أجلها))[٣٠] .

وبصدد الحديث عن مأساة كربلاء وأساليب التعبير السائدة تجاهها يؤكّد السيّد فضل الله على الفكرة ذاتها التي سوّقها في أكثر من مناسبة في مجال العلاقة مع الرموز الدينية، باعتبارها رموزاً للعقيدة، لا باعتبارها الشخصي المجرّد، ولذلك يؤكّد على أن يكون التعاطي معها منطلقاً من هذه العقيدة ومنسجماً معها ولصالحها ولحسابها أيضاً، بعيداً عن العواطف المجرّدة ، ومن ذلك الطقوس والشعائر التي ارتبطت بكربلاء، التي حدَّد موقفه منها بشكل واضح وفي وقتٍ مبكر جداً ، ويقول السيّد فضل الله في هذا الصدد:((ولهذا، فإنَّ علينا أن نطوّر أساليب التعبير عن الحزن، أو التعبير عن كلّ خطّ عاشوراء، لأنّ الماضين إذا كانوا قد استحدثوا وسائلهم بأنْ يضرب شخصٌ رأسَه بالسّيف، أو يضرب شخصٌ ظهره بالسلاسل، أو ما إلى ذلك .. فهذه كانت بيئتهم، وهم لم ينطلقوا فيها من كتاب الله أو من حديث نبيّ أو إمام أو من تخطيط عالِم أو فقيه، ولكنها كانت عواطف تحرّكت، ودرج الناس عليها من دون أنْ يسألوا لما ذلك ؟)) [٣١] .

وكان للسيّد فضل الله رأيٌ في هذه الطقوس في وقتٍ مبكر، يتجاوز البحث الفقهي، من حيث الجواز والحرمة، وربطهما بمسألة الضرر الذي يلحق مرتكب هذه الطقوس، كما هو الحال في التطبير أو ضرب السلاسل، لأنّ الفقهاء اختلفوا في حرمة إلحاق الضرر بالنفس مطلقاً أو إذا كان ضرراً يؤدّي إلى التهلكة . فإنّ السيّد فضل الله صرف البحث إلى مسألة أخرى، وهي مسألة العلاقة بين هذه الطقوس وطبيعة المأساة الكربلائيّة من جهة، ومن حيث النتائج السلبيّة التي تحدثها هذه الطقوس بصورة الدين.

كتب السيّد فضل الله في معالجة هاتين المسألتين : ونودّ أنْ نعالج القضية من زاويتين[٣٢] :

١- زاوية الانسجام بين طبيعة المأساة وبين طبيعة الأساليب.

٢- زاوية النتائج التي تنتج عن ممارستها في واقعنا المعاصر ..ممّا يحدث تشويهاً في صورة الدين وأتباعه..

أمّا قضيّة الانسجام بين المأساة والأسلوب، فإنّنا نقرّر أنّها مفقودة تماماً لأنّ الحجّة الكبيرة التي يقدّمها أنصارها، هي المواساة ..فإنّ الحبّ لأيّ إنسان كان، أو إعزازه، يتمثّل في مواساتك له في أحزانه، ومشاركتك له في آلامه ..لأنّ المشاركة والمواساة تخفّف عنه الكثير ممّا يحسّ به، ولأنّها تدلّ على انفعالك بما ينفعل به، وتعاطفك معه، بكلّ ما يحسّ به ويعانيه . وأنّ قضيّة الحسين في كربلاء ..عاشت في طريق الرسالة وانطلقت في التضحية والاستشهاد من خلال شعاراتها العامة، لا من خلال شعارات الذات ..فكيف يمكن أنْ نُخضعها للإطار الذاتيّ لأصحاب الرسالة ومجاهديها..

وإنّ طبيعة المواساة تتّبع طبيعة المأساة ..فإذا كانت المأساة ذاتيّة كانت المشاركة من موقع الذات بالأساليب الذاتيّة، أما إذا كانت المأساة منطلقة في طريق الرسالة ..فلا بدّ أن تكون المواساة منبثقة عن ذلك.. فإذا كانت آلام الحسين وأحزانه ..من خلال ما كان يفكّر به من قضايا الناس ومشاكلهم، من حيث الحكم الظالم الذي يسيطر عليهم، ومن حيث النظام المنحرف عن خط الإسلام، الذي يطبق عليهم باسم الإسلام ..وإذا كانت الثورة الحسينيّة ..نتيجة لهذا الإحساس العظيم بالمسؤوليّة الإسلاميّة في التحرّك نحو إحداث التغيير الجذريّ في المجتمع ..ولو بأن تشقّ الطريق إلى حركات أخرى وثورات جديدة ، فإنّ المواساة تتمثّل في الآلام التي تمرّ بهذا الطريق، فإذا كان الحسين قد تألّم وهو يقاتل في سبيل الله ..فإنّ مواساتنا له أنْ نتألّم ونحن نجاهد في هذا السبيل ..لأنّ ذاك هو معنى المشاركة ..بأنْ تشارك في موقع الألم وصفته لا من خلال طبيعته الذاتية المجرّدة ..فلم تكن ثورة الحسين من أجل أنْ يتمخض التاريخ عن أشخاص يعيشون في بيوتهم بكلّ استرخاء وكسل ..ولا يضحّون في سبيل الرسالة بأيّ شيء، بل ربّما تكون حياتهم في الموقف المضادّ للرسالة ..ثم

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الرابع الثلاثون – حزيران ٢٠٢٤– ذي الحجة ١٤٤٥
ISSN-2536-0027

يوحي لأنفسهم بقداسة الشعور، فيذرفون بعض الدموع حزناً على الحسين الذات ..على الحسين الثورة في سبيل الفكرة [٣٣].

ويؤكّد السيّد فضل الله دائماً على أن لا يتوقف الإنسان المسلم أمام المأساة الكربلائيّة، بما هي مجرّد مأساة تاريخيّة لا علاقة لها بالحاضر والمستقبل، فهي عندئذٍ ليست إلاّ عاطفة عابرة تنتهي وتزول مع غياب المشهد العاطفي، وهو ما لا يريده السيّد فضل الله لكربلاء، لأنّه يريد له أنْ تكون حاضرة بما هي موقف مؤبّد تُجاه القضايا المصيريّة[٣٤].

وبصدد التغيّرات التي قد تطرأ على التعاطي مع بعض الطقوس السّائدة في بعض الأزمنة، يشير السيّد فضل الله إلى ضرورة مراجعة بعض ألوان التعبير عن الحزن تُجاه كربلاء ومأساة الحسين ، لأنّها قد تكون موجبة لتشويه الإسلام والمذهب، وقد تكون غريبة بعد أنْ كانت طقساً ربّما لا يبعث على السّخرية أو الاستهزاء.

وأمّا النتائج السلبيّة التي تتمثّل في ممارستها في الواقع المعاصر، فهي كما يعتقد السيد فضل الله أنّ مثل هذه الأساليب تُعتبر من وسائل التعبير عن العاطفة و أنّ الوسائل التعبيريّة، سواء منها ما كان بالكلمة أو ما كان بالفعل تتطوّر تبعاً

لتطوّر الزمن ..فربّما تتحوّل بعض هذه الوسائل إلى صورة من صور التخلّف والبدائيّة بالنظر إلى أنّها انطلقت من المستوى البدائي الذي عاش فيه الآخرون وتجاوزه الزمن ..فإذا كان الزّمن الماضي يسمح بوجودها لانسجامها مع مستواه، فإنّ هذا لا يسمح بذلك، فقد أصبحت مثل هذه الأمور مثيرة للاشمئزاز، كماهو الملاحظ في ردود الفعل التي تحدث لدى الكثيرين من الناس، من دون أنْ يكون للجانب الدينيّ أثر في ذلك ..ولذلك فقد أصبحت ممثّلة للتخلّف في حياة الفكرة وأصحابها في نظر الناس ممّا يلزمنا تغييرها إلى أساليب جديدة واستحداث أخرى تختلف عنها في الشكل والجوّ والفكرة ..لأنّها فقدت قيمتها العمليّة من خلال ذلك [٣٥].

ثالثًا : المشاريع الدينيّة

ومن أهمّ ملاحظات السيّد فضل الله على بعض المشاريع الدينية :

١- أنّها تتحوّل من وسيلة إلى غاية، وتبتعد معها المشاريع عن الهدف الذي من أجله أُسّست هذه المؤسّسات وهذه المشاريع.

٢- ولغياب فقدان الوعي الرساليّ، فقد تتحوّل المشاريع والمؤسّسات الدينيّة إلى مؤسّسات غير دينيّة كما يقول السيّد فضل الله، وقد تستحوذ عليها اتّجاهات ليست على صلة بالدين، بل قد تكون معادية له على نحو مطلق.

فإنَّ السيّد فضل الله في عينه النقديّة يريد أنْ لا تتحوّل المشاريع الدينية والمؤسّسات الدينية إلى مجرّد صورة، فارغة من المحتوى الديني، الذي من أجله أُنشئ المشروع وأُسّست المؤسسة، لأنّها إنْ تحوّلت إلى ذلك فإنّها لن تكون جزءاً من الحلّ، بل ستعمّق الأزمة وتفاقمها، ويخسر أصحابها المشروع والفكرة معاً.

٣- والأكثر خطورة في هذه المؤسّسات والمشاريع التي حملت عنواناً دينياً من وجهة نظر السيّد فضل الله أنّها مشاريع فردية، قامت بجهود فرديّة، واستمرت بجهود فردية، لتتحوّل بعد حين إلى إرث شخصي.

ومن أهم الظواهر التي استقطبت همّ السيّد فضل الله وجهدَه وتفكيرَه المرجعيّةُ الدينيّةُ، بما تمثّله من موقع دينيّ رياديّ من جهة، واجتماعي وسياسي من جهة أخرى، فكانت موضع تقديره وموقع نقده في آنٍ معاً، لأنّه وجد فيها موقع الريادة الذي يستأهل التقدير، وموقع النقد الذي يلزم أنْ يؤشّر على ما فيه من مواضع للضعف تنال منه وتوهنه. فللمرجعيّة مركز الثقل على مدى التاريخ الشيعي، وللمرجعية التأثير الفاعل على مدى الزمن.

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الرابع الثلاثون – حزيران ٢٠٢٤– ذي الحجة ١٤٤٥
ISSN-2536-0027

ولكن السيّد فضل الله، وهو إذ يؤكّد الموقع المميَّز والرياديّ للمرجعيّة الشيعيّة، فإنّه لا يتردّد في الحديث عن ما يعتقد أنّه لا يتناسب ودورها وموقعها، مما اعتراها من ضعفٍ وتردّد على مدى الزمن، ولا يحجم عن الاعتراف به والدعوة إلى تجاوزه. وليست بمستوى مواجهة تحدّيات العصر الجديد، بالرغم من كونها ممتلئة فقهيّاً وتحوز شرط

القبول دينيّاً واجتماعيّاً، ولكنّها غير قادرة على الوفاء بمتطلّبات العصر، وليست على استعداد للاستجابة لهذه المتطلّبات. ولذلك رأى السيّد فضل الله أنّ الخطوة الأولى لتجاوز هذه المشكلة، تتوقف على إعادة إنتاج عالِم الدين، وبما يتناسب مع ما ينتظره من مسؤوليات جسام. يقول السيّد فضل الله في مقام ما يقصده من الدعوة إلى التجديد في الأساليب: المقصود بتجديد الحوزات، هو أولاً أن نجدّد الأساليب التي تتضمّنها كتب الدراسة المعتمدة في التدريس منذ مئات السنين، من النزعة النقديّة عند السيّد محمد حسين فضل الله دون أي انتقاص من العمق العلمي الذي تتميّز به الحوزات العلمية في الفقه والأصول، وثانياً :لا بدّ أن يدرس الطالب الحوزوي العلوم التي يحتاجها عندما يريد أن يدخل ساحات الصراع القائمة في المجتمع، أو عندما يخاطب الأجيال، أو عندما ينطلق في القضايا السياسيّة والثقافيّة[٣٦] .

رابعًا : السلوك الديني

ومن الموضوعات التي وُضعت على مشرحة النقد عند السيّد فضل الله، السلوك الديني للمؤسّسة الدينية إنْ جاز التعبير ولرجال الدين وعلمائه، من خلال قراءةٍ نقدية لهذا السلوك، وبعيونٍ من الوسط نفسه، وهو أي السيّد فضل الله الذي ينتمي إليه ويتّصل به .وبذلك فهو لا يستهدفه من خارج الوسط، وبما يُفسَّر على أنّه مؤامرة واتّهام، بل إنّه صوت نقدي من الداخلي، ينبغي تصحيح والإشارة إلى مؤشّر غير صحّي. وفي هذا السياق كان السيّد فضل الله جريئاً وقاسياً في الآن نفسه، وواسعاً وشاملاً في قراءته النقدية.

أ- في جملة ما سجّله السيّد فضل الله على السلوك الديني بالمعنى العام أنّه سلوك اختزاليّ من جهة وعاطفيّ وانفعاليّ من جهةٍ أخرى. والسيّد فضل الله إذ يصف السلوك الديني بممارسة الاختزال، فهو يرى فيه غلبة الطابع الاختزالي على الخطاب الديني، وبما ينعكس على هذا السلوك. ويشير السيّد فضل الله إلى الخطاب التبليغي على وجه التحديد، حيث يتمّ التركيز على جوانب غير أخلاقية، وتتعامى عن جوانب غير أخلاقية لا تقلّ عن سابقاتها خطورة على الأخلاق العامة .ويقارن السيّد فضل الله بين الأخلاق في معاقرة الخمر والقمار ..وبين قضايا السرقة والرشوة وظلم المرأة والبغي و ..ويتساءل عن السبب الذي يدعو فيه علماء الدين التركيز على قضايا الجنس والخمر، فيما يتجاهلون القتل بغير حقّ والسرقة وخيانة الأمانة والرشوة [٣٧] .

وهو إذ يقارن بين هذه الظواهر الا اخلاقية ، فإنّه لا يجد سبباً وجيهاً لتجاهل هذه الظواهر الخطيرة، غير ممارسة الاختزال، في الوقت الذي يفترض فيه السيّد فضل الله أنْ يكون الخطاب الديني واعياً وشاملاً وموضوعياً في هذا الجانب دون الجوانب الأخرى، مع أنّنا نعرف خطورة بعض الانحرافات التي ألمحنا إليها، وتأثيرها . كتب السيّد فضل الله يقول: ومن هنا نبدأ محاكمة هذا الأسلوب في ضمن نقاط [٣٨] .

١- إنّنا نؤكّد خطورته لأنّه يعطي انطباعاً سلبياً عن واقعية الإسلام بعدم قابليته للتطبيق على أساس التجربة المعاصرة المطروحة التي لا تحتفظ بأيّ إيجابيّات عمليّة أمام هذا الحشد الكبير من السلبيّات.. وتتمّ الصورة لدى السامع أو القارئ إذا عاد إلى دراسة التاريخ من خلال سلبياته.

٢- إنّه يفقد ثقة الإنسان بقدرته على تصحيح نفسه في اتّجاه الاستقامة..

٣- إنّه يزيّف الواقع في نظر الناس عندما ينقل لك جانباً واحداً من الصورة، ويلقي الظلال الثقيلة على الجانب الآخر منها، فتبدو الصورة قائمة..

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الرابع الثلاثون – حزيران ٢٠٢٤– ذي الحجة ١٤٤٥
ISSN-2536-0027

٤- - إنّه يختلف عن الأسلوب القرآني الذي انطلق، ليطلق الصورة كما هي في الواقع ..فإذا انتقل بنا إلى الجانب المظلم حملنا حملاً إلى الجانب المضيء، وإذا كان الجوّ غائماً فإنّ بوادر الصحو تشقّ السحاب والضباب لولادة الضحى من جديد، ليظلّ الإنسان مع الجانب المشرق من الصورة ..فينفعل بها في عملية خير وإيمان .

ب - كما وصف السيّد فضل الله السلوك الديني لرجال المؤسسة الدينية بالانهزاميّة، وغلبة صفة الاسترخاء والكسل السلبي على وصفه، وبذرائع متنوّعة وحجج مختلقة ومختلفة، في محاولة للتخلّص من المسؤوليّة تُجاه التحديات الجسام[٣٩] .

إنَّ السيّد فضل الله، وهو يدين هذا السلوك الديني الذي دأب عليه عدد كبير من رجال المؤسّسة الدينية، يعرب عن خيبة أمل كبيرة تجاه الجذر الثقافي له ومستنده الشرعي والفقهي، الذي سوّغ لهم هذا النمط من التفكير، في وقتٍ حُمِّلوا فيه المسؤوليات الجسام في مواجهة التحدّيات التي تعترض الإسلام وأبناء الإسلام وتستهدفهم!!

وفي هذه الكلمات وغيرها لا يتردّد السيّد فضل الله في ممارسة النقد الذاتي، ومن داخل المؤسّسة الدينيّة، كونه أحد أبنائها، وفي جرأة وبقوةٍ ، من دون أن يعني ذلك التقليل من شأنها أو مصادرة دورها، وفي الوقت ذاته فإنّه يقدّر منابع الخير في المجتمع وقدرته على الانفتاح على الإسلام، وأنّه مؤهّل وعلى استعداد للتعرّف عليه وتحمّله كجزء من المسؤولية والمهمة، وهو ما يستدعي ويتطلّب من المؤسسة الدينية أن تتلمّس الوسائل والآليات الناجعة التي يعرفها المجتمع ويتعارفها، وتشيع في حياته وتملأها، وعدم الاكتفاء بما هو متقادم ورثّ وقديم[٤٠] .

ثَبَتُ المَصَادِرِ وَالمَرَاجِع

خيرُ ما نبتدئُ به: القُرْآنُ الكَرِيمُ

- المجلسي: محمد باقر المجلسي (ت/ ١١١١هـ)
١- بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار ، دار الأميرة للطباعة والنشر والتوزيع، ط١/ ٢٠٠٨م.
- الحسني: سليم الحسني
٢- معالِم الجديدة للمرجعية الشيعية، دراسة وحوار مع السيد محمد حسين فضل الله ، دار الملاك، بيروت،ط٤/ ١٩٩٩ م .
- الحسيني: محمد طاهر
٣- النزعة النقدية عند السيد محمد حسين فضل الله ، المركز الاسلامي الثقافي ، لبنان –حارة حريك- مجمع الإمامين الحسنين(ع) ،ط١/ ٢٠١٤م.
- الصدوق: أبو جعفر محمّد بن علي بن الحسين ابن بابويه القمّي (ت/٣٨١هـ) ،
٤- عيون أخبار الرضا(ع) تح: الشيخ حسين الأعلمي ، منشورات: الشريف الرضي، ط١/ ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤ م.
- فضل الله: محمد حسين (ت/١٤٣١هـ)
٥- بيّنات ، ط١/ -دار الملاك بيروت١٩٩٩ /
٦- حديث عاشوراء ، دار الملاك ، بيروت، ط٢/ ١٩٩٨ .
٧- خطوات على طريق الإسلام، دار التعارف،[دار الملاك ، بيروت ، ط٥/ ١٩٨٦م .
٨- في رحاب أهل البيت(ع) ، دار الملاك ، بيروت ، ط٢/٢٠٠٣م .

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الرابع الثلاثون – حزيران ٢٠٢٤– ذي الحجة ١٤٤٥
ISSN-2536-0027

٩- قضايا على ضوء الاسلام، دار الملاك، بيروت ، ط١/١٩٩٦م .
١٠- للإنسان والحياة ، دار الملاك ، بيروت ، ط٣/ ٢٠٠١م .
١١-المدنّس والمقدّس، دار الريّس، ط١/ ٢٠٠٣ م.
١٢-مفاهيم إسلامية عامة ، دار الملاك ، ط٣ / بيروت٢٠٠١م.
١٣-الندوة، دار الملاك، بيروت ط١، ٢٠٠٤ .

- الموسوي: شفيق محمد الموسوي

١٤-صلاة الجمعة - الكلمة والموقف، دار الملاك، بيروت، ط١ ١٩٩٨م .

---

(١) ظ: محمد طاهر الحسيني/ النزعة النقدية عند السيد محمد حسين فضل الله / ٧١-٧٢ .
(٢) ظ: محمد حسين فضل الله/ للانسان والحياة/ ١٩ .

(١) ظ: فضل الله/ مفاهيم اسلامية عامة/ ١٧٦ .
(٤) البقرة/٢٠٤ .
(١) ظ: فضل الله/ مفاهيم اسلامية/ ٤٩٠ .
(٢) ظ:فضل الله/ مفاهيم اسلامية عامة/٢١٧ .
(٣) المجلسي/ بحار الأنوار، ٩٧/ ٧٣ .
(٤) فضل الله/ خطوات على طريق الإسلام /٥٢٨ وما بعدها .
(٥) ظ: فضل الله/ الندوة،٧٨/١٣ .

(١) ظ: شفيق الموسوي/ صلاة الجمعة – الكلمة والموقف/ ١٤٨ .
(٢) ظ: فضل الله/ بينات/٢٣٠ .
(٣) مفاهيم اسلامية عامه/ ١٢٣ .
(٤) المصدر نفسه/١٧٨ .

(١) ظ: فضل الله/ المدنس والمقدس/٣٦٢.
(٢) للإنسان والحياة/١٩ .
(١) قضايا على ضوء الإسلام/ ١٠٥.
(٢) المصدر نفسه/١٥٨ .
(٣) ظ:فضل الله/في رحاب أهل البيت،٣٧٦/٢
(٤) مفاهيم اسلامية عامة/٢١٠ .

(١) ظ: فضل الله/ قضايا على ضوء الإسلام/ ٢٤٠ وما بعدها .
(٢)المصدر نفسه/٢٤٠ .
(٣) الشيخ الصدوق/ عيون أخبار الرضا/٢٧٥ .

(١) في رحاب أهل البيت/٣٧٦ .
(٢) قضايا على ضوء الإسلام/٦٦.

مجلة كامبريدج للبحوث العلمية: مجلة علمية محكمة
تصدر عن مركز كامبريدج للبحوث والمؤتمرات–العدد الرابع الثلاثون – حزيران ٢٠٢٤– ذي الحجة ١٤٤٥
ISSN-2536-0027

(٣) خطوات على طريق الإسلام /٩٤ .
(١) خطوات على طريق الإسلام/٩٢ وما بعدها .
(٢) المصدر نفسه/٩٣.
(٣) ظ: قضايا على ضوء الإسلام/٢٢٢ .
(٤) ظ: خطوات على طريق الإسلام/ ٧٧ .

(١) قضايا على ضوء الإسلام/ ١٣٨ .
(٢) جعفر فضل الله / حديث عاشوراء للسيد فضل الله/ ٥ .
(٣) فضل الله/ خطوات على طريق الإسلام/٣٨٩ وما بعدها .

(١) ظ: فضل الله/ خطوات على طريق الإسلام/ ١٠ وما بعدها .
(٢) ظ: فضل الله/ حديث عاشوراء/ ١٥٤ .

(١) ظ: فضل الله/ خطوات على طريق الإسلام/٣٩٦ .
(١) ظ: فضل الله/ قضايا على ضوء الإسلام/ ٢٩ وما بعدها .
(٢) ظ: سليم الحسيني/ المعالِم الجديدة للمرجعية الشيعية، دراسة وحوار مع السيد محمد حسين فضل الله/١٢٠ .

(١) ظ: فضل الله/ اتّجاهات وأعلام، حوارات فكرية في شؤون المرجعية والحركةالإسلامية /٥٨ .
(٢) ظ: فضل الله/ المعالم الجديدة للمرجعية الدينية/١١٠ وما بعدها .
(٣) ظ: فضل الله/ اتجاهات واعلام/ ٦٠ وما بعدها .